الفصل الأول

مفهوم المجتمع المسلم*

يحسن بنا قبل أن نعرض لأسس بناء المجتمع الإسلامي ولسماته، أن نذكر شيئاً مما تدعو الحاجة إليه فيما يتصل بمفهوم المجتمع ولفظ الجماعة والأمة، ليكون بمثابة توطئة يسيرة لما بعده.

تعريف المجتمع:

لا يخفى أن لفظ المجتمع مشتق من جَمَعَ، فالجَمْعُ: ضم الأشياء المتفقة، وضده التفريق والإفراد، وقد أحسن صاحب "لسان العرب" حين قال في بيان معنى هذه اللفظة: " تجمَّع القوم: اجتمعوا من هاهنا وهاهنا " [١]، وهو تعبير يُلحظ منه استحضار صاحبه لمبدأ نشأة المجتمعات.

وحين النظر في دلالة لفظ المجتمع من حيث هو مصطلح، يجد المرء عدة تعريفات منشؤها تباين النظرات تبعاً للتخصصات، فنجد تعريفاً من منظور سياسي، وآخر من منظور اجتماعي، وثالثاً نفسياً وهكذا.

ولسنا بصدد تتبع هذه التعريفات، وحسبنا في هذا المقام تعريفٌ لعله الأقرب إلى المباحث التي سنعرض لها.

(*) بداية ما أعده أ.د.زيد عمر العيص.

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة جمع ج ٩ ص ٤٠٤.

فالمجتمع هو: عدد كبير من الأفراد المستقرين، تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة، تصحبها أنظمة تضبط السلوك، وسلطة ترعاها[١].

ولا يبعد تعريف المجتمع المسلم من غيره من المجتمعات، إلا بما فيه من خصائص ومواصفات، سوف نفصل القول فيها لاحقاً.

وعلى هدي من هذا يمكن تعريف المجتمع الإسلامي بأنه: خلائق مسلمون في أرضهم مستقرون، تجمعهم رابطة الإسلام، وتدار أمورهم في ضوء تشريعات وأحكام إسلامية، ويرعى شؤونهم ولاة أمر وحكام منهم.

تعريف الجماعة:

الجماعة: هي الطائفة من الناس يجمعها رابط فأكثر، كالقرابة أو الجنس، فهي بهذا المفهوم جزء من مكونات المجتمع، في حين أن مفهوم الأمة أوسع وأشمل، وبخاصة في ضوء المنظور الإسلامي الذي يعنينا في هذا المقام.

تعريف الأمة:

تُعرَّف الأمة بقولهم: كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد أو زمان أو مكان واحد، سواء أكان هذا الأمر الجامع تسخيراً كالجنس

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي، د.محمد أمين المصري، ص ١٤، المجتمع والأسرة في الإسلام، د محمد طاهر الجوابي، ص ١٢، علم الاجتماع والمجتمع الإسلامي، د. مصطفى شاهين، ص ٤٣.

واللون، أم اختياراً كالمعتقد والأرض [١].

ويتعذر قبول هذا التعريف للأمة على إطلاقه؛ لأنه يجعل العوامل والأسباب المادية الدنيوية كاللغة والأرض والجنس من مقومات الأمة، وهذا ما لا يقره الإسلام، مع اعترافه بأن لها أثراً إيجابياً، إلا أنها لا تقوى على تكوين أمة واحدة، إما لضعفها كالأرض، وإما لضيقها كالقرابة.

ويمكن - تجنباً للإطالة - أن نعرف الأمة الإسلامية في ضوء دلالات النصوص الشرعية بأنها: (جماعات من الناس تجمعهم عقيدة الإسلام بغض النظر عن أي اعتبار) ويشهد لهذا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]

ويجدر القول بأن الدول الغربية لم تستطع أن تنطوي كلها تحت أمة واحدة على الرغم من وجود روابط كثيرة بينها، وما زلنا نسمع مصطلح " الأمم الأوروبية "، ومثلها كذلك " الدول الأفريقية "، فإنها على ما بينها من روابط تسمى الأمم الأفريقية، في حين أننا لا نسمع بمصطلح " الأمم الإسلامية " بل هي أمة إسلامية واحدة، على الرغم مما بين أفرادها من اختلاف في اللغة والجنس والأرض، وهذا يعني أن الأمة الإسلامية تتكون من عدة مجتمعات لاعتبارات تفرض نفسها، لكن التوافق بين المجتمعات الإسلامية ملحوظ بسبب اتفاقهم على مرجعية عليا واحدة، وهي الإسلام.

❁❁❁❁❁

(١) الكليات، أبو البقاء العكبري، ص ١٧٦، القاموس السياسي، أحمد عطية الله، ص ١٢٢.

الفصل الثاني

أسس بناء المجتمع وعناية الإسلام بها

إن أي مجتمع باعتباره كياناً قائماً بذاته، لا بدَّ له من أسس يبنى عليها، وتكاد تكون هذه الأسس مشتركة بين المجتمعات كلها، بيد أن المجتمع الإسلامي تميز من غيره في هذا المجال، وكان تميزه من جهتين:

أما الأولى: فهو أنه جعل العقيدة بكل مظاهرها والشريعة بكل أحكامها الأساس الأكبر الذي تبنى عليه الأسس الأخرى، إذ لا قيمة لأي أساس لا تكون العقيدة والشريعة متمثلة فيه قائمة عليه، وهذا ما ظهر جلياً في التربية النبوية للمسلمين أفراداً وجماعات، بخاصة في العهد المكي الذي مهد الطريق للأسس الأخرى لتصبح مكونات معتبرة، وهو ما حرصنا على إبرازه حين عرضنا لهذه الأسس، وبيَّنا كيف أن الإسلام صبغها بصبغة عقيدية وصاغها صياغة إسلامية، ومن هنا كان التميز وكانت الآثار الإيجابية.

وأما الثانية: فإنه بما أوجده من مواصفات، وبما وضعه من اعتبارات تجاه هذه الأسس، فجاء هذا المجتمع متميزاً بتميز أسسه، وهو ما سنعرض له في هذا الفصل.

ويمكن القول: إن الأسس العامة التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي - بعد الأساس العقدي المهيمن عليها - هي:

(١) الإنسان.
(٢) الروابط الاجتماعية.
(٣) الضبط الاجتماعي.
(٤) الأرض.

قوله تعالى:
﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ سورة الأسراء.

الأساس الأول: الإنسان:

عنى الإسلام بالإنسان الفرد عناية لا مثيل لها؛ بغية أن يهيئه ليكون الأساس الأول في بناء المجتمع، وبرزت هذه العناية الإلهية منذ الخلق والتكوين، حين خلقه الله تعالى بيديه ونفخ فيه من روحه ومنحه العقل والحواس، فبان بهذا أنه مخلوق كريم على الله تعالى، ثم تبعته العناية الإلهية حين قضى الله تعالى أن يكون خليفة في الأرض، وقد تُوِّجت هذه العناية بشريعة الإسلام وبما تضمنته من هدايات وتوجيهات تخص الفرد المسلم كادت تستغرق العهد المكي كله، ولم يغفلها العهد المدني، وقد هدفت كلها إلى بناء شخصية للفرد المسلم، متَّزنة مستقلة، تجمع بين ما استودع فيها من رغبات ونزعات، وبين ما أنيط بها من مسؤوليات على مستوى الفرد والجماعات، وهذا ما جعل من هذا الإنسان - بحق - مخلوقاً متميزاً، وصار خليقاً بأن يصبح خليفة في الأرض، وأهلاً للقيام بواجباته تجاه نفسه وتجاه مجتمعه كما أسلفنا.

ومما أسهم في تحقيق هذه الغاية العظمى والمهمة الأسمى، أن الله تعالى أودع في الإنسان نزعتين[1] متباينتين في الظاهر لكنهما

(١) علم الاجتماع والمجتمع المسلم، د. شاهين، ص ٨٥، ص ٢٧٤.

متكاملتان، وهما: النزعة الفردية وهي التي تجعله يحب الخير لنفسه ويدفع الشر عنها، ويحرص على تحقيق ذاته، والنزعة الاجتماعية وهي التي تدفعه إلى صف الجماعة وحضن المجتمع؛ لأن الله تعالى جعل بحكمته حاجة الفرد إلى الفرد، كحاجة العضو إلى العضو في الجسد الواحد [١]، ويفهم هذا إذا عُلِم أن سلوك الفرد ورغباته كالحب والوفاء والتميز والفخر، لا بد لها من محيط اجتماعي تمارَس فيه [٢].

يضاف إلى هذه الدوافع الفطرية دوافع مكتسبة، أوجدها الشارع الحكيم من خلال تشريعات وتكاليف خوطب بها الفرد، لها اتصال مباشر بالمجتمع، وهذا ملحوظ في العبادات كلها كما سنرى، (ذلك لأن الحياة داخل المجتمع تمنح الفرد قوة فوق قوته) [٣].

إن المتأمل في مكانة الفرد في الإسلام وما أحيط به من عناية وتهيئة، يدرك أنه أهل لأن يكون الأساس الأول في بناء المجتمع، باعتباره اللبنة الأولى في الأسرة، تلك الأسرة التي تؤلف مع مثيلاتها المجتمع الرباني.

الأساس الثاني: الروابط الاجتماعية:

فُطِر الإنسان على حب الانتماء إلى المجتمع، فهو يكره العزلة ويميل بطبعه إلى بني جنسه، ذلك: (أن الاجتماع ما هو إلَّا تعبير عن غريزة مستكنَّة في أعماق نفس الإنسان والجماعة، وصفة لازمة من صفاته) [٤].

---

(١) المجتمع الإسلامي، د. محمد أمين المصري، ص ٩.
(٢) المرجع السابق ص ١١
(٣) المجتمع الإسلامي، د. مصطفى عبد الواحد، ص ٢٨.
(٤) المجتمع الإسلامي، د. محمد أمين المصري، ص ١١.

وحيثما وجد تجمع إنساني برزت - بلا شك - روابط اجتماعية وصلات (وهي عبارة عن فكر وسلوك) [١] تنمو وتعمل في ظل التفاعل الاجتماعي بين الأفراد.

ويرى بعض الباحثين [٢]: أن هذه الروابط منها ما هو علاقات اجتماعية، مثل الصداقة والمصاهرة، ومنها ما هو عمليات اجتماعية أشد تعقيداً من سابقتها، مثل الجوار والصراع... ومنهم من يقسم هذه الروابط إلى فطرية كالقرابة، وإلى مكتسبة كالجوار [٣]

وعلى كلٍّ، فهي ظواهر نمَت في ظل الاجتماع وتولدت منه بسبب شعور كل فرد بحاجته إلى التعاون مع الآخرين، والارتباط بهم تحقيقاً للمصالح المشتركة، وهو ما أشار إليه رائد علم الاجتماع ابن خلدون بقوله: (إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته، فلا بد من اجتماع القدر الكبير من أبناء جنسه)[٤].

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المقام تميُّز المجتمع الإسلامي عن غيره في مجال الروابط الاجتماعية، فهو وإن أقر كثيراً من الروابط ورعاها حُق رعايتها، إلَّا أنه جعل الرابطة العظمى والعروة الوثقى هي العقيدةَ وما يفيض عنها من تشريعات وهدايات، لأنها المرجعية الأولى والعليا لأبناء المجتمع الإسلامي في كل ما يصدر عنهم من سلوك وتصرفات، فكان للعقيدة والحالة هذه دورٌ ظاهر في إيجاد روابط

---

(١) علم الاجتماع والمجتمع المسلم، د. شاهين، ص ٢٩.
(٢) علم الاجتماع والمجتمع المسلم، ص ١١.
(٣) المجتمع والأسرة في الإسلام، د. محمد طاهر الجوابي، ص ١٤.
(٤) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ص ٧٩.

اجتماعية، وفي تهذيب روابط أخرى كان قد أقرها العرف من قبل.

إن الإسلام يعتمد في بناء مجتمعه على قوة الرابطة التي يضعها بين المسلمين، ويجعل منهم جسماً واحداً يتجه بقوة نحو غاية واحدة، [١] وذلك ما يصوره الحديث النبوي المشهور: (مثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثَل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [٢].

وجدير في ضوء هذه المفاهيم أن تكون الروابط الاجتماعية واحدة من الأسس التي يبنى عليها المجتمع (ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا: إن المجتمع نسيج مكون من صلات اجتماعية) [٣].

الأساس الثالث: الضبط الاجتماعي:

لا يخفى أن الأفراد يؤثِّر بعضُهم في بعض عندما يضمهم مجتمع واحد، فينشأ عن هذا مجموعة من السلوكيات والأحاسيس والتصورات، تختلف عما يفكر فيه الفرد ويحس به أو يريده لنفسه، وربما اتخذت الجماعات قرارات لم يردها بعض أفرادها - لو خلوا بأنفسهم - لاختلاف الإرادة الفردية عن الإرادة الجماعية، وهذا يعني وجود شخصية جماعية تفرض نفسها على الأفراد [٤].

---

(١) المجتمع الإسلامي، د. مصطفى عبد الواحد، ص ٤٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: المؤمنون كرجل واحد في التراحم والتعاطف.

(٣) المجتمع الإسلامي، د. محمد أمين المصري، ص ١٢.

(٤) انظر: المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ص ٤١١.